الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

هذا عيب ، ولكنه جميل — الظلم البغيض — عتاب موجه إلى الأستاذ الزيات — الدين الاسلامي في المدارس الأجنبية — تجربة جديدة للتعاون بين المصريين والأجانب — دفع اعتراض — هل انتهزت وزارة المعارف فرصة الاضطرابات الدولية لتصفي ما بينها وبين المدارس الأجنبية ؟ — الحق والتاريخ .

هذا عيب ، ولكنه جميل

أشار أديب غاب عني اسمه في مقال نشره بمجلة « الرسالة » إلى أني أتقاضى أجراً على ما أنشر من المقالات والبحوث في الجرائد والمجلات ، وهي إشارة جرت مجرى التعريض ، فكان معناها أن قبول الأجر على المقالات والبحوث عيب ، وهو حقيقةً عيب ، ولكنه عيبٌ جميل ، إن كان الكسب الشريف من العيوب

ويظهر أن جمهور القراء في مصر لا يعرفون ما صارت إليه الصحافة المصرية ، فهي اليوم أعمال اقتصادية يراد منها الربح كما يراد التثقيف . ورجال الاقتصاد لا ينفقون إلا بحساب ، ولا يخرج الدرهم من أيديهم إلا بعد أن يطول حوله الجدال ، وتلك أكبر مزية من مزايا رجال الأعمال ، فهم المصلحون صلاحية حقيقية لتصريف الأمور بعقل وتدبير وسداد ، والكرم رذيلة شنيعة حين يصدر عن رجال الأعمال ، لأنه يشهد بأنهم حُرِموا مزية الضبط والتدقيق . فإن سمعتم أن كاتباً يتقاضى أجراً على مقالاته في إحدى الجرائد فاعرفوا أن ذلك لم يقع إلا في سبيل الحرص على منفعة تلك الجريدة ، فهو ليس إعانة تقدَّم إلى الكاتب وإنما هو ربح حلال يناله الكاتب تعويضاً على ما بذل من إجهاد الفكر في التحرير والإنشاء . وإن سمعتم أن في مصر جريدة لا تنشر إلا ما يقدَّم إليها بالمجان فاعرفوا أن تلك الجريدة صائرة إلى البوار ثم الزوال ، لأن القراء لا ينتظرون الكتاب المجهولين ، وإنما ينتظرون الكتاب المعروفين ، والكاتب لا يُعرَف في وطنه إلا بعد أن يشيب فوداه في مساورة الأبكار من الحقائق والمعاني

وما أريد بهذه الكلمة أن أقول إني جدير بالانتفاع بما أنشر في الجرائد والمجلات ، فهذا القول قد يُعدّ من الزهو في موطن لا أريد فيه غير توجيه النصح إلى من يسألونني من وقت إلى وقت عن إمكان الاستفادة المادية من الصحف المصرية وفي توجيه النصح إلى هؤلاء أقول :

لا تصدقوا أن في مصر جريدة تدفع قرشاً واحداً لكاتب على سبيل المعونة والتشجيع ، ولا تصدقوا أن الصحفيين اليوم يجوز عليهم التلطف ، كما كان يجوز على أسلافهم الكرماء من أمثال علي يوسف وعبد العزيز شاويش وأمين الرافعي ، فتلك أيامٌ خلَت ، وأصبحت الصحافة قوة أدبية واقتصادية لا ينتفع بخيرها إلا أقطاب البيان ، ومن أجل هذا صحّ القول بأن الصحافة المصرية تحتل المكان الثالث في العالم بعد الصحافة الإنجليزية والصحافة الأمريكية ، وستظل كذلك ما دام فيها رجال يعرفون أنه لا عيب في أن تقوَّم الأفكار بالأموال ، إن جاز الوهم بأن الأفكار توزن بموازين الأموال

الظلم البغيض

للظلم أشكال وألوان ، فهناك ظلمٌ حلوٌ عذْب هو ظُلم من يُستملَح منهم الدلال ، وهناك ظلم ثقيل هو ظلم من لا يُقدِّمون ولا يؤخرون ، وهناك ظلم بغيض هو ظلم من نحسن إليهم فيسيئون إليك . فالذين يعيبون علينا أن نتقاضى أجراً على ما ننشر في الجرائد والمجلات فيهم أناس يظنون فينا القدرة على كل شيء ، فهم يدعوننا في كل وقت إلى تزكيتهم عند أصحاب الجرائد والمجلات ، ليجولوا ويصولوا ، كما يجول ويصول من مَن وُهِبوا القدرة على التصرف بالخواطر والقلوب

ولو علم هؤلاء أن حرفة الأدب الغانم قد تحكم على صاحبها بأن يموت قبل الأوان بعشرين عاماً أو ثلاثين لزهدوا في الظفر المكسوب بثقة القراء ، وهل يثق القراء بكاتب إلا بعد أن يطمئنوا إلى أنه يسوِّد القرطاس بالدم لا بالمداد ؟ ثقة القارئ عروس غالية يقدَّم إليها الكاتب خاتماً قد اتخذ حديده من الدم الذي سفحه على سنان القلم في الليالي الطوال

آه ، ثم آه ! !

من يصدّق أن الكاتب الموثوق بكفايته البيانية لا ينقل

عواطفه إلى قرائه إلا بعد أن تنفعل خواطره انفعالاً يحوّلها إلى نسيم تنتعش به أرواح الوجود !

من يصدّق أن الكاتب الذي يؤثّر في عصره وزمانه لا يجود بكلمة من كلماته إلا وهو يجود بأكواب حِرار من دم الكبد والقلب

ومع هذا يقال إنه أجير لأصحاب الجرائد والمجلات ! !

ولو قدّرت مصر الكاتب حق قدره لعرفت أنه عنوانها الصحيح في الشرق والغرب ؛ فبفضل الكاتب قيل إن مصر زعيمة الأمم العربية ، وبفضل الكاتب قيل إن صحافة مصر تزاحم الصحافة الإنجليزية والصحافة الأمريكية . وهل من القليل أن نكون في الصحافة أعظم من أمم كثيرة تفوقنا في الأنفس والأموال ؟

عتاب موجه الى الزيات

إذا صح هذا — وهو صحيح — فكيف يجوز للأستاذ الزيات أن ينشر في مجلته تعريضاً بأجير يتقاضاه كاتبٌ صاحبَ « الرسالة » بصدق وإخلاص أكثر من أربع سنين ؟

ومن الزيات الصديق ؟

هو الرجل الذي يؤذيني بين قرائي وأصدقائي ، فما ينشر لهم كلمة أقدمها إليه إلا بعد اختبار دقيق

أريد أن أعرف كيف يجوز للزيات أن يسمح بنشر كلمة فيها تعريض بمن ينتفعون بجهاد الأقلام ، وهم أعظم من الذين ينتفعون بجهاد السيوف ؟

وكيف يكون من العيب أن ننتفع بجهودنا الأدبية وهي جهود نخدم بها المجتمع كما يخدمه المشتغلون بالمحاماة والتدريس ؟

وإذا جاز أن يُنشَر في الرسالة تعريض بمن ينتفعون بثمرات أقلامهم ، ففي أي مكان ينتظر أرباب الأقلام كلمة الحق في الثناء على ما يقدّمون من تضحيات ، وهم أقل المجاهدين حظاً من الثواب على الجهاد ؟

ومتى نجد رَوْح الوفاء إذا عزّ وجوده عند من قضوا أعمارهم في الأنس بمعاني الأدب الرفيع ؟

وما هو الأجر الذي يقدَّم إلى الكتّاب في مصر حتى تصوَّب إليهم سهام التجريح ؟

ما زلنا نشكو الغبن الذي يلاحق الصحافة الأدبية في هذه البلاد ، فليس أمام الكاتب الأدبي فرصة واحدة من الفرص التي يتمتع بها الكاتب السياسي ، لأن مصر التي برعت في خلق العصبيات السياسية ، لم تفكر في خلق العصبيات الأدبية ، والكاتب السياسي قد يستطيع التمتع بأجازة يتذوق فيها طعم الراحة شهراً أو شهرين مع حفظ حقه في المرتب ؛ أما الكاتب الأدبي ، فهو مقهور على معاقرة الكدح الموصول ، إلا أن يعفيه الله عن ذلك الأجر الممنون

من المزعج أن تُنسى حقوق الكاتب الأدبي ، وهو يعاون معاونة جدية على ترقية الصحافة الأدبية ، وهي صحافة لم تكن ولن تكون إلا لوناً من ترف العقول ، وهي الشاهد على أن الأمة لها في عالم الفكر مطامح وآمال ، ولكن أين المنصفون ؟

ونحن قد زهدنا في خدمة الصحافة السياسية ، وهي الصحافة التي يخطب ودها أقطاب السياسة ورجال الأعمال ، والتي تمكّن أصحابها من نواصي المناصب العالية ، فهل كنا من الموفّقين في إيثار ذلك الزهد ؟ هيهات ... فما كان زهدنا في الصحافة السياسية إلا ضرباً من الخذلان !

قد نعزّي أنفسنا فنقول : إن الجهاد في الميدان الأدبي أبقى على الزمان ، وتلك والله علالة المهزومين ؛ وإلا فكيف يُحسد الكاتب الأدبي على الانتفاع بجهوده الأدبية ، وهي لن تصل به إلى منازل المجد إلا يوم يتولى أمور الناس رجلٌ في حصافة ابن العميد ، أو عقل سعد زغلول ؟

وما هي تلك المنافع التي نعيّر بها في مجلتك ، يا صديقي الزيات ؟

وما الذي استفدت أنت من خدمة الأدب ، وبيدك مجلة أدبية تضرّ بها وتنفع ؟

كل ما غنمتَه هو السلامة من مزالق الشبهات ، وذلك مغنمٌ عظيمٌ جداً ، ولكنه قليل الوزن في العصور الممسوخة ، عصور الزهد في معالي الأمور . ولو اعتدل الميزان — كما رجونا ألف مرة — لكان للصحافة الأدبية مكان مرموق في هذه البلاد ، ولكنه لن يعتدل إلا بعد أحيان طوال ، ويومئذ ينسى الناس أن مصر عاش فيها أقوام حفروا أساس الصحافة الأدبية بأسنة الأقلام ، وهم محرومون من عطف الصديق المواسي ، والناصر الرفيق

ومهما تكن العواقب ، فذلك حظي وحظك ، وحظ إخوان كرام رضوا بالشقاء في خدمة الصحافة الأدبية ليرضوا شهوة العقل ،

وللعقول شهوات أقوى وأعنف من شهوات العيون والقلوب

وهل أقبلنا على الصحافة الأدبية طائعين ؟

لا ، والله ، فما أقبلنا على هذا المورد إلا مسوقين بسوّاق حُطَم ، هو القلم المفتون بافتراع المعانى

وجملة القول أن ما يعاب علىّ يعاب عليك ، فمتى تكثُر هذه العيوب ؟ ومتى يكثُر القادرون على الانتفاع بثمرات الأقلام ؟

العيب الحق هو أن تشهد الوقائع بأن الذين ينتفعون من الصحافة الأدبية لا يزيدون عن آحاد ، لأن أدباء مصر لم يستطيعوا إلى اليوم أن يصيّروا الأدب غاية وجودية ، يحيا بها الناس كما يحيون بالطعام والشراب

فهل يستطيع من عابوا علىّ الانتفاعَ بقلمى أن ينتفعوا بأقلامهم ؟

وهل فيهم من جُعِل رزقه فى سنان قلمه ، كما جُعل رزق فى سنان قلمى ؟

ليت الله يُكثر من المنتفعين بأقلامهم ، لنؤمن ونصدّق بأن القلم صارت له دولة فى هذه البلاد !

ليت ، ثم ليت ! !

الدين الإسلامى فى المدارس الأجنبية

قرأت فى الجرائد خلاصة ما انتهى إليه البحث بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فيما يتصل بتعليم الدين الاسلامى للتلاميذ المسلمين بتلك المدارس ، وقد فهمت مما قرأت أن البحث وصل إلى غايتين :

الأولى أنه لا يجوز أن يعلَّم تلميذ ديناً غير دينه ولو رضى أهله بذلك

الثانية أنه يجب تعليم الدين الاسلامى للتلاميذ المسلمين بالمدارس الأجنبية

وقد حدثنى بعض من شهدوا تلك المحادثات أن نظار المدارس الأجنبية لم يعترضوا على النص الذى يوجب ألا يتعلم التلميذ ديناً غير دينه ، لأنهم لا يريدون فتح باب الفُرقة والخلاف بين أبناء هذه البلاد ، ولأنهم يعرفون أنهم مؤتمنون على ضمائر من يدخل مدارسهم من أبناء المسلمين

أما النص الذى يوجب أن يتعلم التلاميذ المسلمون مبادئ الدين الإسلامى فقد وافق عليه نظار المدارس الأجنبية بعد جدال بسيط ، وكانت حجة المجادلين أن بعض المدارس قد تتعدد فيها الديانات والمذاهب ، فمن الإرهاق لجدول الدروس أن تخصَّص فيه ساعات لتدريس ديانات التلاميذ على ما بينها من تباعد واختلاف ، وهنا وجدت وزارة المعارف الحل فرضيت بأن تكون دروس الدين الإسلامى فى أيام الآحاد

ذلك ما حدثنى به الصديق الذى شهد تلك المباحثات فما الذى أملك فى التعقيب على هذا الموضوع الدقيق ؟

أواجه الموضوع بصراحة تنفعنا وتنفع ضيوفنا الأجانب فأقول : تنقسم المدارس الأجنبية إلى قسمين : مدارس مدنية ومدارس دينية

أما المدارس المدنية فهى على أتم استعداد لتدريس الدين الإسلامى فى دورها ، لأن نظامها يقوم على احترام جميع الديانات وإن كانت غير مُلزَمة بتدريس الديانات ، وما دام الرأى العامّ فى مصر يرى أن الدين الإسلامى مادة أساسية فى تثقيف التلاميذ المسلمين فهى لا تمانع فى أن يكون فى دورها مكان لتعليم أولئك التلاميذ مبادئ ذلك الدين

بقيت المدارس الدينية ، وهى مدارس لا يُطلَب منها غير الحياد ، فكيف نفرض عليها أن تعلم الدين الإسلامى فى دورها ؟ إنما يجب أن نسهل عليها هذه المهمة فنتولى تعليم مَن بها من التلاميذ المسلمين فى دور المدارس المصرية وفى أيام الآحاد

ذلك ما رأته وزارة المعارف ، وهو رأى أرادت به مجاملة المدارس الدينية ، حتى لا يقال إن وزارة المعارف تجرح إحساس الأجانب من رجال الدين

كل هذا جميل ، وجميل جداً ، وجداً جميل ، كما يعبر الدكتور طه حسين

ولكنه إن وقع فسيشهد بأننا جميعاً نعيش فى عصور الظلمات ؛ فنظار المدارس الأجنبية لا ينكرون أن الإسلام دين يتقرب به إلى الله مئات الملايين . فكيف تضيق به مدرسة يديرها أوربيون أو أمريكيون ، وقد نشأوا فى بلاد لا ترى من العيب أن تدرس الأوهام والأضاليل حتى تشعر بالحرج فى السماح بتدريس الدين الإسلامى « وهو إن لم يكن وحياً من السماء كما يزعم من خاصموه فهو بلا جدال أقوى سورة من صور الضمير الإنسانى ، وأعظم شاهد على سيطرة الفكر والعقل والوجدان »

لو جاز لى أن أتهم وزارة المعارف لقلت إنها تريد اختبار بعض رجال الدين من الأجانب ، فهى تريد أن تجرب مبلغ استعدادهم لتقبل التعاون السليم من شوائب الأغراض ، فما الذى سيصنع أولئك الرجال فى الرد على وزارة المعارف !

أنا أرجح أنهم سيفكرون فى منافع تلاميذهم من المسلمين فينظمون لهم دروس الدين الإسلامى بطريقة تعفيهم من التردد على المدارس المصرية وفى أيام الآحاد

فما هى تلك الطريقة ؟

فى المدارس الأجنبية نظام مدرسى يسمى نظام الـ Cours وهو النظام الذى يسمح بأن يقسم التلاميذ إلى فرق مختلفة فى وقت واحد . فمن السهل أن يُتَّبع هذا النظام فى تدريس الديانات فى المدارس التى تختلف فيها الديانات ، وعندئذ يذهب الخطر المتوقع من إرهاق جدول الدروس

رفع اعتراض

قد يقال إن فى تدريس الدين الإسلامى بالمدارس الأجنبية فتحاً لأبواب الشقاق بين التلاميذ المختلفين فى الدين

وأجيب بأن إغفال الدين الإسلامى هو الذى يخلق ذلك الشقاق ، لأنه يفرض على التلاميذ المسلمين أن يتصوروا أنهم مضطهدون ، ويوحى إليهم فكرة الوهم بأنهم يتعلمون فى مدارس تضمر لدينهم معانى العداء المكشوف أو الملفوف

فما مصلحة تلك المدارس فى إغفال الدين الإسلامى ؟

وما الموجب لأن يتعبوا بتجديد خصومات نحب أن تموت ؟

الواقع أن بعض نظار المدارس الأجنبية لم يجدوا من يدلهم على اتجاهات الأفكار والعقول فى هذه البلاد . ولو وجدوا من يرشدهم لأحفونا وأحفوا أنفسهم من الدخول فى محرجات تؤذينا وتؤذيهم أعنف الإيذاء

للمدارس الأجنبية ماض جميل فى نشر اللغات الحية بالديار المصرية ، وذلك الماضى الجميل يحتاج إلى حارس أمين من الحاضر الجميل ...

فمن يبلغ بعض نظار المدارس الأجنبية أن الصديق الحق هو الذى يرشدهم بصدق وإخلاص إلى جلية الأمر فى مواطن قد اشتبكت فيها الأوهام والظنون ؟

إن صدقت النيات فى تحقيق ما تم عليه الاتفاق بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فسيكون لتلك المدارس مستقبل أروع وأجل من ماضيها الرائع الجميل

ثم رفع اعتراض

قيل وقيل إن وزارة المعارف قد انتهزت فرصة الاضطرابات الدولية لتصفى ما بينها وبين المدارس الأجنبية ، وذلك القيل كذب وافتراء ، فوزارة المعارف تفكر فى هذه الشؤون منذ أعوام طوال ، وهى بالفعل قد قررت التفتيش على جميع المدارس الأجنبية منذ سنة ١٩٣٨ يوم كان الحديث عن وقوع حرب عالمية رجماً بالغيب ، فمن التجنى على وزارة المعارف أن يقال إنها تنتهز فرصة الاضطرابات الدولية لتحقق أغراضاً سليمة لا يطعن فى سلامتها إلا أهل الأغراض والأهواء

أما بعد فقد علمت أن قانون التعليم الحر سيعدل بعد تلك المباحثات تعديلاً يضمن السلامة من أخطار الخلاف بين المصريين والأجانب ، ويؤكد الثقة والصفاء بين أولئك وهؤلاء

للحق والتاريخ

حدثنى صديق شهد تلك المباحثات أن أعضاء اللجان الفرعية من الأجانب عز عليهم أن تنتهى فى أسابيع ، فقد راعهم أن يعرفوا أن فى وزارة المعارف رجالاً موسومين بالرفق واللطف فى معالجة الدقائق من المعضلات ، وكانوا يتوهمون أنهم لن يلقوا إلا رجالاً يغنيهم الاهتمام بالحق عن مراعاة الرفق واللطف

وكذلك حدثنى ذلك الصديق أنه لم يكن ينتظر أن تتم تلك المباحثات فى أسابيع ، فقد كانت الاراجيف شاءت أن تصور بعض رجال التعليم من الأجانب بصورة من يعادون العروبة والإسلام فى هذه البلاد . ثم شاء الله أن تشهد الظروف بأنهم أبرياء من تُرَّهات تلك الأراجيف

ذلك ما حدثنى به الصديق الذى شهد تلك المباحثات ، وهو لم يخبرنى بجديد ، فقد اتصلت بنظار المدارس الأجنبية عدداً من السنين فلم أجد منهم غير الأدب واللطف والذوق ، ولم أشهد عليهم غير الاهتمام بمراعاة العواطف المصرية ، كتب الله لنا ولهم التوفيق فى خدمة العلوم والآداب والفنون .

زكى مبارك